العلاقات الأسرية فى المصطلح المملوكى

للدكتور
احمد عبد الرازق
كلية الآداب — جامعة عين شمس

لا جدال فى أن طبقة المماليك التى حكمت مصر زهاء قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ - ٩٢٣ — ١٢٥٠ — ١٥١٧) لم تدرك المفهوم الصحيح للأسرة [١] ، بل لم يكن لديها حياة عائلية بالمعنى المعروف رغم أن غالبية أفرادها حرصوا على الزواج [٢] وعلى انجاب الأطفال ، وأيضا على نظام التسرى وإقتناء الجوارى والحظيات [٣] ، ذلك أن أسلوب المماليك فى الحياة لم يقم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهى : الأب والأم والأولاد ، بقدر ما قام على أساس الرقيق والمماليك فالعلاقات بين المماليك الذين جمعتهم أواصر الرق والعتق والتربية والخدمة [٤] ، وكذلك العلاقات بين المملوك الكبير والمملوك الصغير تشبه أحيانا روابط البنوة ، وأحيانا روابط الأخوة ، ولم يكن فى حياة المملوك من الروابط العائلية غير واحدة منها فقط . وخير ما يوضح ذلك معانى ألفاظ المصطلح المملوكى، فالأستاذ [٥] هو الأب ، والأغا [٦] هو الأخ الكبير ، والانى [٧] هو الأخ الصغير، وورد فى المصادر المملوكية ما يشير أيضا إلى أن لفظ أخ يرادف لفظ خشداش [٨] ولفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية . وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الإبن كان كثيرا لا يخلف أباه فى مركزه ولا يرثه أيضا فى ثروته [٩]. وإنما المملوك هو الذى كان يحل محل أستاذه ويرثه حتى فى الإستيلاء على حريمه [١٠] . وخير ما يوضح ذلك أيضا أن الواحد منهم كان لا يأكل مع أبنائه وحريمه

وإنما يفضل أن يأكل مع مماليكه ، وإذا رأى نارا توقدا سأل عنها فيقال أن فلانا إشتهى كذا فيغضب ممن لا يأكل عنده[11]. كذلك كثيرا ما نصت بعض الحجج الخاصة بأوقاف المماليك على أن الأستاذ أحق الناس بالتمتع بريع الوقف الذى يقفه المملوك[12] . ومن ثم فقد أصبحت الحياة العائلية لطبقة المماليك لا تقوم على أساس العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه بقدر ما تقوم على أساس العلاقة بين الأستاذ ومماليكه وبين المماليك وبعضهم البعض .

أما عن كون الأستاذ بمثابة الأب ، فهو يبدو بوضوح من تلك الرسالة التى بعث بها السلطان الظاهر بيبرس من دمشق سنة ١٢٧١/٦٧٠ إلى مماليكه بمصر حيث يقول فيها « ... ووالدكم يسلم عليكم ويتشوق اليكم ، وإيثاره ألا يفارقكم ، وإنما قدمنا راحتكم على راحتنا ...[13] » . ومن الأمثال العديدة التى لا تمل المصادر المملوكية من إيرادها فى بعض المناسبات العائلية إذ يذكر المؤرخ المملوكى إبن تغرى بردى فى معرض حديثه عن مقتل السلطان لاجين ومملوكه منكرتمر ، أن الأول قد أعطى سلطات واسعة إلى الثانى الذى أساء بدوره استعمالها ، فكان كما قيل فى الأمثال « الولد الخبيث يكتسب لأبيه اللعنة[14] » . كذلك عندما أقبل المماليك السلطانية عام ١٣٨٩/٧٩١ على اللهو والنساء بدمشق وضايقوا أهل المدينة حتى سئمهم الناس ، وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيهم وفى — مرسلهم السلطان برقوق[15]، نجد أن المؤرخ نفسه يشير من جديد إلى المثل السابق قائلا : « إن الولد الخبيث يكون سببا لوالده فى اللعنة[16] » .

وعلى هذا فقد ارتبط المملوك باستاذه الذى اشتراه والذى أعتقه بروابط وثيقة ، وكثيرا ما كان يظل وفيا ومخلصا له حتى آخر يوم فى حياته ، وهذا الأستاذ بالمعنى المملوكى الإصطلاحى[17] ، الذى تطلق عليه المصادر إسم

السيد [18] أو المعتق [19] أو المولى [20] . ولذا فقد حرص مؤرخو عصر سلاطين المماليك ، على الإشارة فى مؤلفاتهم عند ذكر أسماء المماليك ، إلى المعتقين الذين أعتقوهم [21] أو النص صراحة على جهلهم بأسماء أولئك المعتقين ، مثلما يفعل أحد الكتاب فى معرض حديثه عن معتق الأمير سيف الدين طوغان نائب الكرك حين يقول : « توفى الأمير سيف الدين طوغان السيفى أقبردى المنقار نائب الكرك قتيلا بيد العربان فى هـــذه السنة (١٤٥٢/٨٥٦) وهو من الأصاغر الذين أنشأهم الملك الظاهر جقمق فى أوائل دولته ولم أعرفه قبل ذلك ، ولا أعرف معتقه ، بل قيل أنه من مماليك أقبردى المنقار ، وقيل نوروز الحافظى [22] » . كما عاب المؤرخ إبن تغرى بردى على زميله إبن حجر جهله بمعرفة أستاذ السلطان الأشرف برسباى بما نصه « وسبب سياقنا لهذه الحكاية أن قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر رحمه الله نسبه أنه عتيق دقاق وليس الأمر على ما نقله ، وهو معذور فيما نقله لبعده عن معرفة اللغة التركية ومداخلة الأتراك ، وقد اشتهر أيضا بالدقاقى فظن أنه عتيق دقاق ... وتوجهنا إلى السيفى طوغان الدقاقى وهو من أكابر مماليك دقاق وسألته عن الملك الأشرف سؤال استفهام فقال هو عتيق الظاهر برقوق وقدمه أستاذنا اليه ... [23] » .

أما المماليك الذين يتم تحريرهم فكان يطلق على الواحد منهم لفظ عتيق والجمع عتقاء أو يعرف باسم معتق والجمع معاتيق ، وإن كان اللفظ الأخير قليل الإستعمال فى المصادر التاريخية . ويلاحظ أيضا أن لفظ عتيق نادرا ما يأتى منفرداً بل كان يرد فى عبارات خاصة مثل : « عتيق فلان » أو « كان أصله من عتقاء فلان [24] » ، كما نقرأ أيضا فى المصادر المملوكية عبارة « أصله من مماليك فلان » ، التى لم تكن تعنى بالضرورة الأستاذ الذى أعتق المملوك وإنما تشير فى بعض الأحيان إلى السيد الذى آل إليه هذا المملوك . إذ يذكر المؤرخ إبن تغرى بردى فى ترجمة الأمير سيف الدين يلخجا بن عبد الله

من هامش السـاقى أنه « كان أصله من مماليك الظاهر برقوق أخـذه مع أبيـه وأمه ثم أنعم به على ولده الملك المنصور عبـد العزيز ، ثم ملـكه الناصر فرج[٢٥] » .

وإذا حدث وانتقل المملوك ، بعد عتقه ، إلى خدمة سيد آخر ، كان يطلق على هـذا السـيد الجديد إسم مخدوم[٢٦] ، ويطلق على الممـلوك لقب مستخدم[٢٧] . بيـد أن الروابط بينهما لم تـكن في متانة العلاقات التى تربط بين المعتق وعتيقه ، وإنما كانت فى الغالب علاقات سطحية وصلات باردة، سببها من غير شك، يقين المستخدم بأن المخدوم لا يراعى إلا مماليـكه الأصليين، ولعل خير دليل على ذلك ما كان يكنه السلطان من كراهية للمماليك القرانيص الذين انتقلوا إلى خدمته ، وهم ممن أعتقهم السلاطين السابقون[٢٨] ، إذ غالباً ما اعتبرهم السلطان الجديد أقل مكانة من معاتيقه .

وتتحدث المصادر التاريخية التى وضعت فى العصر المملوكى عن الصلات الطيبـة التى كانت تربط دائماً بين الأسـتاذ والمملوك الذى أعتقـه[٢٩] ومن ذلك ما اشتهر به السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى من تقديره لأستاذه أيدكين البندقدارى ، إذ جعله نائبـاً للشام وصار يعظمه ويقول له فى كثير من المناسبات :

« أنت أستاذى ويعرف له حق التربية[٣٠] » . بل ذهب بيبرس أبعد من ذلك حينما أظهر الاحترام أيضـاً للأستاذ الذى اشترى أيدكين وأعتقه زمن الأيوبيين وهو الأمير جمـال الدين بن يغمور ، الذى كانت قد تقدمت به السن حتى عاصر الدولة المملوكية الأولى ، وأصبح موضع ثقة هذا السلطان وتقـديره[٣١] . والحق أن ظاهرة اشتراك الأسـتاذ فى بلاط أحد مماليـكه كثيراً ما أثارت دهشـة المؤرخ الذى أخذ يتعجب من تقلبات القـدر الذى لا يستقر أبداً على حال ، حين جعل على حد قوله من السيد مسوداً[٣٢] .

ومن أمثلة قوة الروابط بين المملوك وأستاذه الذى أعتقه ما تذكره المصادر المعاصرة من أن المماليك الخاصكية لم تهدأ ثائرتهم ضد الأمير بيدرا قاتل أستاذهم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون إلا بعد أن قبضوا عليه سنة ٦٩٢/ ١٢٩٢ وحزوا رأسه(٣٣)، وقيام الأمير كرجى باغتيال السلطان لاجين سنة ٦٩٨/١٢٩٨ ليأخذ أيضاً بثأر أستاذه السلطان المذكور بعد مضى أكثر من ست سنوات(٣٤). ومن قول المماليك السلطانية للسلطان الأشرف شعبان فى رسالة بعثوا بها إليه سنة ٧٦٨/١٣٦٦ «أنت أستاذنا وما نموت إلا تحت أقدامك(٣٥)».

ويفهم أيضاً من المصادر المعاصرة أن ولاء المملوك لم يكن قاصراً على أستاذه الذى رباه وأعتقه بل كثيراً ما كان يشمل أيضاً ابن هذا الأستاذ. إذ يروى ابن تغرى بردى فى تاريخه كيف لم يوافق أمراء حلب وحماه وحمص على طاعة السلطان بيبرس الجاشنكير الذى إغتصب الحكم من السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٨/١٣٠٨، وأعلنوا تمسكهم بطاعة ابن أستاذهم المنصور قلاوون(٣٦)، بل هبوا أيضا لنجدته والعمل على استرجاع سلطانه عندما تعنت معه السلطان بيبرس الجاشنكير أثناء فترة نفيه بالكرك، وطالبه برد ما عنده من المماليك والخيول والأموال، وأغلظ له فى المخاطبة، وبعد أن كتب الناصر إليهم مذكراً بما لوالده عليهم «من حق التربية والعتق والإحسان»(٣٧). ويتجلى هذا الولاء أيضا فيما فعله الأمير أرقطاى نائب السلطنة سنة ٧٤٧/١٣٤٦ حين مضوا إليه بالسلطان المظفر حاجى وهو حاسر الرأس «فلما رآه نزل على فرسه ورمى على السلطان قباءه وقال: أعوذ بالله أقتل ابن أستاذى(٣٨)». ونسمع كذلك عن خروج الأمير إينال نائب صفد على طاعة السلطان الأشرف برسباى سنة ٨٢٥/ ١٤٢٢، لأنه خلع ابن أستاذه ططر من السلطنة(٣٩).

وكان من الطبيعي كذلك أن يبادر الأستاذ مملوكه نفس الولاء والوفاء ويهب ليدافع عنه وليثأر له عند الضرورة/ كما حدث سنة ١٣٩٧/٨٠٠ عندما رغب الأمير على باى فى قتل السلطان الظاهر برقوق بسبب أن أحد مماليكه أفسد جارية من جوارى الأمير أقباى الطرنطاى وكان ساكنا بجوار بيت الأمير على باى ، فلم علم الأمير أقباى بذلك قبض على مملوك الأمير على باى وضربه نحو أربعمائة عصا . فلما بلغ الأمير على باى ذلك تعصب لمملوكه وطلع إلى القلعة واشتكى الأمير أقباى إلى السلطان ، فلم يلتفت السلطان إلى كلام على باى فحنق من السلطان(٤٠) .

لهذا كان من العسير على المملوك أن يحول فجأة من شعوره وأحاسيسه بل وأيضا من ولائه ووفائه إلى الأستاذ الجديد الذى ينتقل إلى خدمته بدليل أن المماليك الكتابية من ميراث السلطان جقمق الذين قاموا بشرائهم السلطان إينال وأعتقهم رفضوا الاعتراف بهذا العتق بحجة أن جقمق هو الذى تعهدهم بالتربية فى الطباق بالقلعة ومن ثم فقد كان فى نظرهم بمثابة أستاذهم الفعلى وقد عبروا عن ذلك بقولهم : « نحن عتقاء الظاهر (جقمق) وتربيته فلا أصير عتيق الأشرف إينال بقطعة ورق » ، ومن ثم فقد كان مثال عتقهم الذى رسم به السلطان الأشرف إينال فى نظرهم بمثابة قطع ورق لا قيمة لها الأمر الذى ترتب عليه فى النهاية أن قام السلطان إينال بطردهم من الطباق وأنزلهم من القلعة عقابا لهم(٤١) . ويفهم أيضا من المصادر المعاصرة أن خليفة هذا السلطان وهو السلطان خشقدم الأحمدى قد تعرض لنفس المشكلة حينما علم أن المماليك الأجلاب الذين ملكهم الأشرف إينال وأجرى عليهم العتق وقربهم وجعلهم خاصكية له ، قد اتفقوا مع بقية زملائهم على قتله بل وقتل جميع الأمراء بالحوش السلطانى فيما عدا واحد منهم ليسلطنونه عوضاً عن الظاهر خشقدم الأحمدى(٤٢) .

ويعتبر التقصير فى الولاء والوفاء والاخلاص للأستاذ عملا ذميما بدليل ما يذكره المؤرخ ابن أياس فى أحداث سنة ١٣٨٩/٧٩١ بصدد منطاش مملوك الظاهر برقوق الذى اشتراه ورباه ثم اعتقه وأخرج له خيلا وقماشا، والذى « ظهر منه بعض إفساد فى القاهرة فضربه السلطان برقوق علقة ونفاه إلى البلاد الشامية فلما عصى يلبغا الناصرى السلطان التف عليه منطاش وحضر معه إلى القاهرة وحارب أستاذه برقوق أشد المحاربة وقيده ونفاه إلى الكرك ذلك حتى أرسل مراسيم بقتله فكان حال السلطان برقوق مع مملوكه منطاش كما قيل فى المعنى :

كنت من كربتى أفر إليهم   فهم كربتى فأين المفر[٤٣]

كذلك لم يتوان السلطان جقمق عندما علم بتآمر جماعة من المماليك على اغتيال أستاذهم الأمير تغرى بردى الدوادار الكبير ومحاصرتهم لداره سنة ١٤٤٢/٨٤٦ « من إرسال جماعة من رؤوس النوب فمسكوا منهم جماعة كثيرين وضربوهم ضربا مبرحا ، ثم أرسل بهم أستاذهم إلى المقشرة مع الوالى[٤٤] » . بيد أن مثل هذا التقصير وذلك العقوق يعتبر قليلا إذا ماقيس بالعديد من الحالات التى حرص فيها المماليك على التعبير عن ولائهم لأساتذتهم وعن الاعتراف بفضلهم عليهم . وحسبنا أن نشير فى النهاية إلى تلك العبارة المشهورة التى كان الأمير سيف الدين بلاط بن عبد الله الناصر شاد الشراب خاناه يرددها دائما على مسمع أستاذه الناصر فرج بن برقوق لما فيها من دلالة على قوة الروابط التى كانت تجمع بين الأستاذ ومملوكه أو بمعنى آخر بين الأب وابنه ، إذ كان يقول له : « أنت أستاذى وأبى وربى ونبى ، وأنا لا أعرف أحداً غيرك[٤٥] » .

ومن الروابط العائلية المملوكية التى لا تقل أهمية عن رابطة الأستاذية تلك الرابطة التي جمعت بين المملوك الصغير الذي عرف فى المصطلح المملوكى

باسم « إنى » كما سبق أن أوضحنا ، والمملوك الأكبر سنا الذى كان يعهد إليه برعاية الانى فى الطباق[٤٦] ، والذى عرف فى المصطلح المملوكى باسم أغا مفرد أغوات[٤٧] وهى لفظة يجب علينا باديء ذى بدء أن نلفت الأنظار إلى ملاحظة هامة بصددها وهى أن كلمة أغا كثيراً ما تطلق فى المصادر المملوكية على المماليك بصفة عامة ونادراً ما تطلق على الطواشية ، على الرغم من أن أهم مميزات هذا اللفظ أن يكون صاحبه طواشيا خصيا .

وعلى الأغا كانت تقع مسئولية تأديب الانى إذ كان أشبه بمؤدبه وكثيرا ما خصه بعطفه ورعايته وإذا حدث وقوع صدام بين المماليك فى الطباق فلم يكن الأغا ليتردد لحظة فى معاونة إنياته[٤٨] . بيد أننا نجهل تماما أسلوب العلاقة السائدة بين الأغا وانياته ، كما نجهل أيضا ما كان عليه أن يعاملهم بالشدة أو اللين وذلك لخلو المصادر المملوكية من التفاصيل الدقيقة الخاصة بالحياة اليومية فى الطباق وكل الذى نعرفه هو أنه فى حال معاقبة الأغا لأحد الانيات ، فغالبا ما كان يثور عليه بقية الانيات تعصبا لزميلهم كما جاء فى أحداث سنة ٨٦٠/١٤٥٦ ، إذا يصف لنا المؤرخ ابن تغرى بردى كيف أخرق المماليك الجلبان بناظر الخاص وأخذوا عمامته من رأسه ، وكيف أدركه فى النهاية مقدم المماليك جرجان ونائبه عنبر فأخرقوا بهما أيضا ، ولكنه حصل الاشتغال بهما حتى هرب الجمالى المذكور ، وذكر المؤرخ أن سبب هذه الثورة « أن شخصا من الدوادارية الصغار يسمى سنقر قرق شبق ، ضرب بعض إنياته الذين بالطباق ، فاجتمع عليه بقية إنياته عصبة للمضروب وأردوا قتله ، فهرب منهم واشتكاهم إلى السلطان فأحضر منهم جماعة وضربهم ضربا مبرحا ، فنزل أصحابهم من الاطباق ، ووقفوا عند باب القلعة فصادف ذلك خروج — الجمالى من الخدمة فأوقعوا به من غير سبب[٤٩] » . ومع هذا فمن المسلم به أن العلاقة بين الأغا وإنياته تظل وثيقة بعد عتق المماليك ومغادرتهم الطباق . إذ كان الأغا يحرص دائما على

مساعدة إنيه أو بمعنى آخر أخيه الأصغر ، ويوصى بترقيته فى الرتب والوظائف المختلفة ، ومن ذلك ما ترويه المصادر المعاصرة من أن الظاهر خشقدم صار خاصكيا فى دولة الملك المظفر أحمد بن شيخ بسفارة أغاته الأمير تغرى بردى قريب قصروه(٥٠) . وكثيرا ما نجد أيضا أن الانى كان يحمل ألقاب وأسماء أغاته . إذ ذكر السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » أن طوخ الناصرى فرج كان يعرف بطوخ مازى نسبة لأغاته مازى الظاهرى(٥١) ، وجاء أيضا فى ترجمة الأمير سودون القاضى نائب طرابلس المتوفى سنة ٨٢٣/١٤٣٠ أن « سبب تسميته بالقاضى ، أنه كان إنيا للأمير تنبك القاضى فسمى على اسم أغاته(٥٢) » . ويكفى أن نشير هنا إلى ما حدث سنة ٨٨٧/١٤٨٢ للتدليل على مدى ارتباط الانى بأغاته ، إذ جاء فى تاريخ ابن إياس أن السلطان الأشرف قايتباى « رسم للقضاة والشهود أن لا يعقدوا لمملوك من مماليكه ، حتى يأخذوا الاذن من أغاته(٥٣) » .

ومما لا شك فيه أن الانى مهما بلغ من الرقى والنفوذ فانه كان يظل فى العادة معترفا بجميل أغاته حتى ولو غدا أعظم منه وظيفة ورتبة الأمر الذى يذكرنا بما كان يحدث للأستاذ عندما يتقلد احدى الوظائف فى بلاط أحد مماليكه ويشير المؤرخ ابن تغرى بردى إلى حادثة من هذا القبيل ويعتبرها أيضا من تقلبات الدهر حين يقول بصدد سودون القاضى « والعجيب أنه صار رأس نوبة النوب وأغاته تنبك القاضى من جملة رؤوس النوب العشرات يمشى فى خدمته إنيه(٥٤) » .

والواقع أن الانى لم يكن ليتنكر لاغاته بعد وصوله إلى أعلى المناصب بل كثيرا ما اعترف باحسانه وأقر بفضله وبحق تربيته كما فى حالة تنبك البجاسى الذى ترقى فى الوظائف حتى أصبح نائب حلب ، على حين أن أغاته جرقطلو كان نائبا فى حماه ، ولم ينتقل إلى نيابة حلب ، الا بعد أن غدا

تنبك نائبا على الشام ، ومرجع ذلك إلى إعتراف الأخير بفضل أغاته عليه وبحق التربية(٥٥) . وتروى المصادر المملوكية المعاصرة أيضا ، أنه حين اجتمع تنبك بأغاته جرقطلو فى حفل شهده السلطان ططر سنة ١٤٢٣/٨٢٦ اضطر تنبك إلى الجلوس فى الجانب الذى يجلس فيه أغاته حتى لا يطل عليه من مجلسه لأنه يضطرب فى حضرته، وأيضا لئلا يجلس فوقه حياء منه(٥٦) .

وكان من الطبيعى أيضاً أن يعتبر الأغا تعيين الانى رئيسا عليه فى إحدى الوظائف المملوكية بمثابة إهانة كبرى ألحقت به ولم يكن ليتردد فى الانتقام من الانى بدافع من الحقد وذلك فى أقرب فرصة مواتية . إذ نقرأ فى المصادر المملوكية أن الطنبغا الماردانى صار يقف فوق التمرتاشى وهو أغاته ، فشق ذلك عليه وكتم فى نفسه إلى أن ملك السلطان الصالح إسماعيل فتمكن حينئذ التمرتاشى ، وصار الأمر له وعمل على الماردانى ، فلم يشعر الأخير إلا وقد أخرج على خمس رؤوس من خيل البريد إلى نيابة حماة فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٢/٧٤٣(٥٧) . ونقرأ أيضاً أنه أثناء نفى تمربغا الظاهرى الدوادار فإن وريثه جانبك الدوادار أصبح عظيم المماليك الظاهرية جقمق، ولكن بعد عودة الأمــير تمربغا من النفى جلس فوق الأمير جانبك « لكونه كان أغاته بطبقة المستجدة وذلك لعظمته فى النفوس وسبقه للرئاسة(٥٨) » .

ويفهم كذلك من المصادر المملوكية أنه لكى يصل المملوك إلى منصب السلطنة أو إلى أتابكية العساكر ، كان يجب أن يتوفر فيه بعض الشروط لعل من أهمها أن يكون أغا لعدة من المماليك فقد روى المؤرخ ابن تغرى بردى فى أحداث سنة ١٤٢٢/٨٢٥ أن الأمير برسباى قد خلا بالأمير تنبك نائب الشام وتكلم معه واستشاره فيمن يكون سلطانا على الديار المصرية تجتمع الناس على طاعته ، وعرض عليه منصب السلطنة قائلا : « فأنت أغاتنا

وكبيرنا وأقدمنا هجرة ، بيد أن الأمير تنبك استعاذ من ذلك وقال لبرسباى « ليس لها غيرك[٥٩] » .

وتتضح أيضا أن أهمية الأغا من خلال احترام المماليك له وتسليمهم بما يقوم به من أعمال حتى ولو كانت فى بعض الأحيان ضد مصالحهم الخاصة. وحسبنا أن نشير هنا إلى ما جاء على لسان الأمير سودون من عبد الرحمن الذى ذهب عام ١٤٢١/٨٢٤ مع الأمراء إلى الأمير جانبك الصوفى ليقول له : « أنت كبيرنا ورئيسنا وغاتنا، ونحن راضون بك فيما تفعل وتريد[٦٠] ». وعلى هذا فيمكن القول أن أقدمية المملوك كانت تراعى دائما عند تقلد الوظائف الهامة فى الدولة وفى الجيش المملوكى بدليل أن الأمير أسندمر النورى قد أنكر على السلطان جقمق عدم ترقيته فى وظائف الدولة على الرغم من أنه من أنيات أخيه الأمير جاركس[٦١] .

ولسنا أيضا بحاجة إلى التأكيد بأن التصرف السيء من جانب الانى فى حق أغاته كان يعتبر من الأخطاء الكبرى التى لا تغتفر ، فقد حدثنا المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى أنه بعد أن ظفر تغرى برمش بجماعة من الحلبيين بعد قتاله معهم سنة ١٤٢١/٨٢٤ أمر بقطع أيديهم وبالغ فى الإضرار بالناس لدرجة أن هذا المؤرخ ذهب إلى الترجيح بأنه لو « كان لتغرى برمش على أهل حلب دولة لفعل فيهم أعظم من فعل تيمور لنك لقلة دينه وجبروته »، الذى دفعه ، على حد زعم هذا المؤرخ ، إلى قتل أغاته[٦٢] .

ويفهم أيضا من المصادر التى وضعت على عصر سلاطين المماليك أن كلا من الأغا والانى تمتعا بمركز ممتاز فى الدولة المملوكية بدليل أننا نلاحظ أن بعض السلاطين يراعون فى أحكامهم ، أن الشخص المحكوم عليه كان من الأغوات أو الأنيات فى وقت من الأوقات ، وبالتالى كانوا يعمدون

عند ذلك إلى التخفيف من أحكامهم عليه ، ومن ذلك ما جاء فى أحداث سنة ١٤٢٣/٨٢٦ من تاريخ ابن تغرى بردى ، عندما رسم السلطان الأشرف برسباى بتوجه اسندمر النورى بطالا إلى ثغر دمياط لتفريطه فى أمر جانبك عدو السلطان ، الذى نجح فى الفرار من سجنه . ويعلق المؤرخ على هذا بقوله أن أسندمر المذكور كان من أغوات السلطان برسباى ومن أكابر أنيات الأمير جركس القاسمى المصارع لكان له معه شأن آخر (٦٣) .

وعلى ذلك فمن الواضح أن علاقة الأنى بأغاته تكاد تشبه علاقة المملوك بأستاذه بدليل حرص الأغا على إصطحاب إنياته فى أسفاره ورحلاته كما حدث عام ١٤٥٧/٨٦٢ عندما استقر مرجان مقدم المماليك السلطانية أمير حاج الركب الأول ، فلما سافر أخذ معه جماعة كبيرة من إنياته المماليك الأجلاب (٦٤) . ولكن هذا لا يعنى أن الأستاذ والأغا أصبحا من درجة واحدة بدليل أن الأخير كثيراً ما لعب دور الوسيط بين الخشداشية والأستاذ (٦٥) .

ويحق لنا الآن أن نتساءل عن عدد الأغوات المقررين لكل طبقة من الطباق الموجودة بالقلعة ؟

الواقع أنه من الصعب الإجابة على هذا السؤال ، خاصة وأن المصادر المملوكية التى تحت أيدينا قد ضنت علينا بمعلوماتها فى هذا الصدد ، كما ضنت علينا أيضاً بمعلوماتها عن عدد الإنيات الذى كان يشرف عليه كل أغا ، كذلك من الصعب علينا أن نؤكد عما إذا كان أولئك الأغوات من بين المماليك الذين تم عتقهم قبل أن يعهد إليهم بالأشراف على الإنيات فى الطباق ، لا سيما وأن كل ما لدينا من معلومات ينحصر فى وجود مشرف واحد لكل طبقة من بين المماليك الذين تم بالفعل عتقهم وهذا الأخير كان يعرف باسم أغا الطبقة ، وهو ليس من بين الطواشية الخصيان ، لذلك يجب ألا نخلط بينه وبين مقدم الطبقة الذى عرف أيضاً باسم طواشى الطبقة أو خدام الطبقة (٦٦)

أو سواق الطبقة[٦٧] ، كما وقع فى هذا الخطأ بعض المستشرقين[٦٨] ، إذ أن من أهم ميزات هذا الأخير أن يكون من بين الطواشية الخصيان وذلك لعدة أسباب لعل أهمها جميعاً هو الحرص على سلامة المماليك الأحداث الذين كانوا يودعون الطباق وهم فى سن مبكرة ، وخوفا عليهم من الشذوذ الجنسى الذى إبتلى به المجتمع المصرى فى العصر المملوكى[٦٩] . حقيقة أن أغا الطبقة ومقدم الطبقة وظائف كل منهما غير واضحة المعالم لكننا على يقين تام بأن أغا الطبقة لم يكن من بين الطواشية الخصيان بدليل ماتذكره المصادر المملوكية من أن الأمير جركس القاسمى المصارع كان أغا لطبقة الزمام[٧٠] وتانى بك البجاسى أغا لطبقة الرفوف وكان له إبناً يدعى أحمد، زودنا السخاوى بترجمة له[٧١] . كما تشير المصادر المملوكية إلى أغا طبقة الميدان المعروف باسم نوروز المجنون[٧٣] . وحسبنا أن نذكر فى النهاية أن السلطان الغورى قد طلب من أغوات الطباق سنة ١٥١٦/٩٢٢ أن يقوموا بتطليق زوجاتهم حتى لاينظر أحد منهم خلفه عند خروجه لمحاربة العثمانيين[٧٤] . وفى ذلك أيضاً خير دليل على أن أغوات الطباق لم يكونوا من بين الطواشية الخصيان .

ونجد فى المصادر المملوكية أيضاً مايشير إلى أن لفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية ، حقيقة أن كلمة أخوة تعنى الأخوة فى الميلاد وليس الأخوة فى الأفكار وفى الدين وفى المبادىء ، الذين يطلق عليهم عادة إخوان . ومع ذلك فقد أمدتنا المصادر المعاصرة بالعديد من الحالات التى تقوم دليلا على أن لفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية ومن ذلك قول كتبغا عند سلطنة لاجين سنة ١٢٩٦/٦٩٦ «أنه خشداشى وأنا وهو شىء واحد[٧٥]» ، أما لاجين فقد قرر من جهته عند فرار كتبغا إلى الشام بعد سلطنة لاجين بأنه لو أراد القبض على كتبغا لما كان ذلك أمراً شاقاً عليه ، « غير أن كتبغا كفانا ذلك لأنه من أخوتنا[٧٦] » . كذلك نجد أن السلطان لاجين يحاول من تهدئة ثورة إخوانه فيقول لهم فى إحدى المناسبات مامعناه ، أنكم لن تتعرضوا

مرة أخرى لما سبق أن تعرضتم له من مماليك كتبغا ، لأنكم خشداشيتي ومحل إخوتي(٧٧) » . وتروى المصادر أيضاً أن السلطان الظاهر جقمق قد عهد بنيابة غزة إلى الأمير طوخ بن عبد الله الأبوبكرى بتوصية من إخوته المؤيدية أى مماليك السلطان المؤيد شيخ(٧٨) . وجاء أيضاً على لسان الأمير يلبغا ، بعد أن أحرز نصراً على السلطان الظاهر برقوق ، الذى أرسل إليه يطلب منه أماناً لنفسه سنة ١٣٨٩/٧٩١ ، لرسول السلطان ما نصه « الملك الظاهر أخونا واخشداشنا ولكنه يختفى بمكان إلى أن تخمد الفتنة فإن الآن كل واحد له رأى وكلام(٧٩) » . ونقرأ أيضا فى أحداث سنة ١٤٣٨/٨٤٢ أنه فى « يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر وقف جماعة من الأشرفية تحت القلعة بغير سلاح ووقع بينهم وبين خشداشيتهم الذين من طبقة الأشرافية من إنيات إينال وأخوته وقعة هائلة بالدبابيس(٨٠) » .

كل هذه النصوص تثبت بما لا يقبل الشك أن لفظ أخوة رادف لفظ خشداشية ، لذلك لا عجب إذا جرت العادة فى تلك الفترة من تاريخ مصر تحت حكم سلاطين المماليك أنه كلما كثرت خشداشية أمير من الأمراء تبعها بالتالى ازدياد فى مكانته لا فى البلاط المملوكى فحسب بل أيضا فى الدولة كلها ، إذ تروى المصادر المملوكية أنه فى سنة ١٢٥٣/٦٥١ صار الأمير أقطاى زعيم المماليك البحرية ، وهم أقوى الفئات المملوكية حينذاك ، فأضحى لا يقدر أحد من الأمراء أن يفتح كتابا ولا يتكلم بشىء ولا يبرم أمراً إلا بحضوره لكثرة خشداشيته . لذلك بعد مقتل أقطاى هذا بتدبير من السلطان أيبك ومملوكية قطز فى العام التالى سنة ١٢٥٤/٦٥٢ سارعت خشداشية من البحرية بالتحرك(٨١) الأمر الذى ترتب عليه تحرج مركز السلطان عز الدين أيبك ، فأخذ برأيهم ويعمل على إبعادهم حتى تم تشريدهم فى الشام وآسيا الصغرى ، حيث عملوا على خلق المشاكل له ، بل ساعدوا أيضا على اغتياله(٨٢) .

كذلك حرص بعض الخشداشية على تولية السلطنة إلى أحد زملائهم وفى حالة نجاحهم فإنهم لم يكونوا ليترددوا لحظة فى مساندة السلطان الجديد، الذى كان إذا اطمأن إلى ولاء خشداشيته فسرعان ما يعمل على رفعهم إلى أعلى الرتب والمناصب ويعهد إليهم بالوظائف الرئيسية(٨٣) ، بل وكثيراً ما كان يعمل إلى إقصاء الأمراء من ذوى السلطة والنفوذ ، وأيضا أصدقائهم حتى لا يكونوا شوكة فى ظهره ولا عائقه أمام خشداشيته . والتاريخ المملوكى ملىء بالأحداث التى تظهر بوضوح مدى الروابط الوثيقة بين الخشداشية ومدى التضامن المتبادل الذى كان يجمعهم تحت رئاسة واحدة ، ولعله من المناسب أن نشير هنا إلى ما يذكره المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى فى معرض ترجمته للأمير جانبك نائب جدة من « أنه صار فى أيام انحطاط قدر خشداشيته الظاهرية فى الدولة الأشرفية إينال كالستر عليهم بالإنعام والإعطاء وقضاء حوائجهم والذب عما يقع منهم والقيام بعمل مصالحهم مع كثرة عددهم وإختلاف مواضعهم ومحل إقامتهم فى أى بلد كانوا فيها واستمر ذلك منه لهم دهرا طويلا وهو لا يكل ولا يمل من ذلك(٨٤) » .

وتشير المصادر أيضا إلى حالة السلطان بيبرس البندقدارى الذى حرص على إستمالة خشداشيته من البحرية بتأمير عدد منهم والتجاوز أيضا عن سيئات بعضهم مثلما فعل مع الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق الذى أعلن العصيان والاستقلال ببلاد الشام . بيد أن السلطان بيبرس أخذ فى العمل على إصلاح أمره معه(٨٥) ، وإلى حالة السلطان المنصور قلاوون الذى جرى على تكريم خشداشيته ، عندما عين الأمير سنجر نائبا على الشام بعد أيام من سلطنته سنة ٦٧٨/١٢٧٩ ، كما قرب إليه الأمير بلبان وصار يرعى له حق الخشداشية ويعوده أثناء مرضه فى بيته(٨٦) .

كذلك حرص الخشداشية على الوفاء لبعضهم البعض والعمل على إنقاذ من يقع منهم فى محنة ، ومن ذلك ما يرويه المقريزى فى حوادث سنة ٧٠٩/١٣٠٩ عندما قرر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع مماليكه القبض على بعض الأمراء ، « وأن كل عشرة يقبضون أميراً ممن عينه لهم ، بحيث تكون العشرة عند دخول الأمير محتفة به ، فاذا رفع السماط واستدعى السلطان أمير جاندار[٨٧] قبض كل جماعة على من عين لهم . فلما حصل الامراء فى الخدمة أحاط بهم المماليك ففهموا القصد ، وجلسوا على السماط ، فلم يتناول أحد منهم لقمة . وعندما نهضوا أشار السلطان إلى أمير جاندار ، فتقدم إليه وقبض المماليك على الامراء المعينين ، وعدتهم اثنان وعشرون أميراً ، فلم يتحرك أحد لقبضهم من خشداشيتهم ، وبهت الجميع[٨٨] » . ونقرأ أيضا فى نجوم ابن تغرى بردى أن خشداشية الأمير حسام الدين لاجين قبلوا الأرض بين يدى السلطان قلاوون وسألوه العفو عند زميلهم وأخوهم ، وذلك بعد أن قبض عليه لتحريضه بعض الأمراء بالخروج عن طاعته فاستجاب السلطان لهم وأطلق سراحه ، بل وأعاده إلى رتبته تكريما لخشداشيته[٨٩] ، ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان لاجين قد أقر كتبغا فى نيابة صرخد بالشام ، بعد أن طرده السلطان لاجين من السلطنة سنة ٦٩٦/١٢٩٦ وذلك لأنه خشداشة[٩٠] .

ومن مظاهر وفاء الخشداشية وحبهم بعضهم لبعض حرصهم على الأخذ بيد من يتخلف منهم فى الترقى إذ جاء فى ترجمة الأمير سيف الدين يونس ابن عبد الله العلائى المتوفى سنة ٨٦٤/١٤٥٩ « أن أصله من مماليك الظاهر برقوق الكتابية ، ثم ملكه الناصر فرج وأعتقه ودام من جملة المماليك السلطانية سنين كثيرة لا يلتفت إليه فى الدولة إلى أن تأمر عشرة فى أوائل دولة السلطان الظاهر جقمق مراعاة لخاطر الأمير اينال العلائى الأجرود ، لأنه كان خشداشه من تاجر واحد[٩١] » .

ولم يصل الأمير كتبغا بن عبد الله الحموى اليلبغاوى إلى وظيفة أتابك العساكر بالديار المصرية زمن السلطان برقوق إلا لكونه خشداشه، فكلاهما مملوك الأمير يلبغا العمرى أتابك العساكر أيام السلطان حسين بن شعبان[٩٢].

وجاء فى نفس المصدر أيضاً أن ابن عبد الله القلمطاوى لم يترق إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية إلا بسبب كونه خشداش السلطان برقوق[٩٣] كذلك يسجل لنا السخاوى أن السلطان الظاهر خشقدم قد اشتهر بالعطف على خشداشيته والعمل على ترقيتهم دائماً والأخذ بيد من كان قد تخلف منهم. ونذكر على سبيل المثال الأمير قانم من صقر خجا الجركسى الذى صار أتابك العساكر، فعظم أمره ونالته السعادة وقصده الناس فى الحوائج، وعمر الأملاك الكثير[٩٤]، ومغلباى طاز الأبو بكرى الذى جعله خشداشه خشقدم أمير طبلخاناه دفعة واحدة[٩٥].

وبلغ من تكريم بعض الأمراء لخشداشيتهم أن الأمير جمال الدين أقوش السلحدار قد أوصى سنة ١٢٧٩/٦٧٨ حسبما جاء فى تاريخ ابن تغرى بردى بأن يدفن بعد وفاته عند خشداشه أيدكين البندقدارى نائب دمشق وأستاذ السلطان الظاهر بيبرس[٩٦].

وتروى المصادر أيضاً أن الخشداش كان كثيراً ما يستولى على موجود زميله وأخاه إذا توفى أثناء معركة من المعارك[٩٧] بل ذهب أيضاً إلى الاستيلاء على إقطاعات من مات من أخوته وزملائه فى الوباء كما حدث بمصر سنة ١٤٩٢/٨٩٧ أيام السلطان الأشرف قايتباى[٩٨].

وكان من الطبيعى أن يقابل ما يكنه الخشداشية من الحب والولاء لبعضهم، كراهية شديدة لغيرهم ممن لم يكونوا من إخوتهم وزملائهم، بدليل أن حالة المملوك الذى كان يتعرض لسخط أولئك الخشداشية كانت كثيراً ما تقابل بشىء من الرثاء والعطف من جانب المؤرخين الذين دونوا لنا

تاريخ تلك الفترة من عصر سلاطين المماليك ، والذين كانوا يطلقون على هذا المملوك لفظ أجنبى أو غريب[٩٩] .

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما يذكره المؤرخ ابن تغرى بردى بصدد الأمير بكتمر الساقى الذى كان يعتبر غريباً فى قصر السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، ذلك أنه لم يكن له خشداش وكان وحيداً بسبب تحزب جميع الخاصكية ضده برغم حظوته عند السلطان المذكور[١٠٠] . كذلك كان شأن الأمير طقزدمر الحموى ، إذ اعتبر غريباً فى بيت السلطان لأنه لم يكن له خشداش ، برغم تربيته فى بيت المنصور قلاوون أثناء إمارته[١٠١] .

كما أطلقت بعض المصادر على الأمير جانبك الصوفى صفة المجنون، لتركه خشداشيته وميله إلى يشبك الجكمى « وهو رجل غريب وليس له شوكة ولا حاشية[١٠٢] » . ولعل أهم ما يبرز العلاقات الوثيقة بين الخشداشية بعضهم البعض أن شجرة الدر اعتبرت نفسها خشداشاً للمماليك الصالحية رغم كونها إمرأة واستطاعت بمساعدتهم ومعونتهم أن تتولى السلطنة ، بل حاول خشداشيتها من هؤلاء الصالحية بكل قوتهم أن يحولوا دون قتلها ، غير أنهم فشلوا فى تحقيق ذلك إزاء حرص مماليك زوجها السلطان عز الدين إيبك على الأخذ بثأر أستاذهم الذى دبرت شجرة الدر اغتياله[١٠٣] .

لذلك كان من الطبيعى أن يكون تنكر السلطان لخشداشيته بمثابة نذير خراب ودمار سلطنته بدليل ما حدث بعد سلطنة لاجين سنة ٦٩٦/١٢٩٦ بمعاونة خشداشيته غير أنه سرعان ما نسى ما قطعه على نفسه لهم من عهود ومواثيق ، وعهد إلى مملوكه منكوتمر بنيابة السلطنة ، فاستبد بالأمراء من خشداشية وأخوة السلطان لاجين . فكان ذلك حسب قول المؤرخ ابن تغرى بردى بمثابة « وبالا على كليهما[١٠٤] » .

بيد أن هذا الترابط الواضح بين الخشداشية بعضهم البعض لم يمنعهم فى بعض الأحيان من الانقسام على أنفسهم ، خاصة عند تنصيب أحد السلاطين الجدد ، وذلك عندما ينحاز فريق منهم إلى جانب أمير ، وينضم فريق إلى جانب أمير آخر منهم ، وكان كثيراً ما يترتب على هذا الانقسام وتلك الفرقة نشوب الحروب الداخلية من أجل الوصول إلى العرش والفوز بالسلطنة . والتاريخ المملوكى ملىء بمثل هذه الحوادث ، وإن كان أشهرها على الإطلاق ما وقع بين أيبك وأقطاى ، وبين لاجين وكتبغا ، وبين برقوق وبركة الجوبانى(١٠٥) .

مما سبق يتضح لنا أن العائلة المملوكية كانت تتألف أساساً من الأستاذ وهو الأب ، والخشداش وهو الأخ ، والأغاوهو الأخ الأكبر والآنى وهو الأخ الأصغر بدليل أن كل من لم يكن عضواً فى هذه العائلة كان يعتبر بمثابة غريب أو أجنبى ، كما سبق أن نوهنا ، يعيش فى رحاب وكرم هذه العائلة المملوكية ، ويتجلى هذا بوضوح أيضا من ملاحظة أحد المعاصرين عن المماليك السيفية(١٠٦) وهم الذين ينقلون من خدمة أمير إلى خدمة سلطان . إذ يتحدث عنهم بلهجة ملؤها السخرية والاستخفاف فيقول : «السيفية أعنى مماليك الأمراء الذين خدموا فى باب السلطنة بعد موت أساتذتهم ، وهم كل شىء لأنهم فى الغالب ، مع الغالب ولا يكترث أحدهم بسلطان بعينه ، غير أن من تسلطن صاروا له مماليك كما هو مثل العامة من تزوج بأمى صحت له يا أبى(١٠٧) » .

بجمل القول أن هذا المؤرخ يعيب على تلك الفئة من المماليك تفكك أواصر الروابط بينهم بعد توزيعهم وتفريقهم الواحد عن الآخر . إذ أنه كتب عليهم أن يخدموا فى مجموعة لا تربط أفرادها أية صلة عائلية ومن ثم فقد عرفت هذه الطائفة باستقلالها وبحرمانها أيضا من الحياة العائلية ، ونقصد بها طبعاً العائلة العسكرية المملوكية .

الحـــواشى

(١) Lecerf, Notes sur la famille dans le monde arabe et Islamique, Arabica, I (1956), pp.30—40.

(٢) Ahmad Abd ar-Raziq, la femme an temps des Mamlucks en Egypte, Le Caire 1973, pp. 123—174.

(٣) Ahmad Abd ar-Raziq, la Femme, pp. 164—170.

(٤) D. Ayalen, L'Eselavage du Mamleuk, Jérusalem 1951, pp. 27---31.

(٥) لفظة معربة لأنه يقال لأنه ليس فى اللغــة العربية كلمة أصــيلة تجتمع فيها الذال والسين ، أنظر : القاموس المحيط مادة « سيذة » . وأستاذ معربة عن كلمة أســتاذ الفارسية وهى تعنى السيد أو المشهور بعمله انظر : محمد موسى هنداوى ، المعجم فى اللغة الفارسية وقد كان لقب الأســتاذ يطلق فى عصر المماليك أيضاً على التاجر أو السيد الذى يشترى المـلوك ويقوم بتربيته ولعل خير دليل على ذلك ما ذكره حسام المجرى بصدد سفارته الى المملوك غازان حين ذكر له ما نصــه « إنا نحن يشترونا التجار من البلاد ونحن صغار والتاجر الذى يشترينا يسمينا باسمه وكان إسم أســتاذى مجير الدين فلقبونى المجيرى » انظر :

Zetterstéen, Beitrage zur geschichte der mamluken : sultane Leiden I919, p. 101.

بيبرس الدوادار ، زبدة الفـكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم ٢٣٣٣٢٥ ، ورقة ٩٨ أ ؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ١ ، ص٥٩ — ٦٣ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليـكى فى مصر والشام ، والقاهرة ١٩٦٥ ، ص٣٨٩ .

(٦) كلمة أغا أصلها آقا وهى من كلمات اللغة المغولية ، ومعناها الأخ الـكبير وترد كثيراً فى تاريخ المغول وقد دخلت هذه الـكلمة فى اللغة الفارسية واستخدمها الـكتاب الذين جاءوا بعــد غزو جنـكيز خان ، وجمعها آقاان أو آقاوان أو آقايان . انظر : عبد اللطيف ابراهيم ، الوثائق فى خـدمة الآثار ؛ ص٢٩ ؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، جـ١ ص ٣٦ .

(٧) كلمة إنى أو إينى جمعها انيات أصلها إيناك أو إيناكا وهى من كلمات اللغة المغولية وتعنى الأخ الصغير وهى من الـكلمات المألوفة أيضاً فى تاريخ المغول انظر .

Pevet de Courteille. Dietiemmaire turk-eriemtal, Paris 1870, P. 138,

ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ ٦ ، ص ٨٣٩ ؛ جـ ٧ ، ص ٧ ، ٦١٢ ؛ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٨ — ٢٠٧٣ ، جـ٣ ، ورقة ١٦٤ أ ؛ جـ٤ ، ورقة ٢١٠ب؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، جـ٤ ، ص ٩ ، ٣٠٧ .

(٨) خشداش أو خجداش معرب اللفظ الفارسى خواجاناش أى الزميل فى الخدمة أو الرق أو العتق .

انظر المقريزى ، السلوك فى معرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٧٢ ، جـ١ ، ص ٦٣٦ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ١ ؛ ورقة ١٨٣ أ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١٣ ؛ السيد الباز العرينى ، المماليك ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٤١ ، ٢١١ ؛ عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر القاهرة ١٩٦٤ ، جـ١ ، ص١٨ .

(٩) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٣٩٠ .

(١٠) Muir, The mamluké or slave dynasty of Egypt, London 1896, p. 225.

(١١) المقريزى ، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، جـ١ ، ص٨٧ — ٨٨ .

(١٢) انظر حجة وقف السلطان الغورى (أرشيف وزارة الأوقاف رقم ٨٨٣) .

(١٣) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٥٩٩ .

(١٤) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى : ورقة ٥٥ ب ؛ النجوم الزاهرة ، طبعة القاهرة ، جـ٨ ، ص١٠٠ .

(١٥) ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٨٩٣ — ١٨٩٥ ، جـ ١ ، ص ٢٧١ ؛ حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٧١ .

(١٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورينا ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص٢٨٢ — ٢٨٣ ؛

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 182, Ayalen, L'Esclavage; p. 35.

(١٧) تاريخ ابن الفرات ، بيروت ١٩٣٦ — ١٩٤٢ ، جـ٩ ، ص١٨١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص ٣٧٧ ، ٥٧٨ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ١٣٢٥ — ١٣٥٥ هـ ، جـ٣ ، ص٦٦ ؛ جـ٦ ، ص١٨٤ ، ٢٢٦ .

(١٨) السخاوى ، الضوء اللامع جـ ٣ ، ص٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ؛ جـ ٤ ص٨ ، ١٠ ، ١٢ ؛ جـ٦ ، ص٢٠١ .

(١٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ ٧ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، كاليفورنيا ١٩٣٠ — ١٩٤٢ ، ص٧٢٠ ؛ المنهل الصافى ، جـ ١ ، ورقة ٣٦ ب ، ١٩٩ ب ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ب ؛ جـ ٢ ، ورقة ٩٦أ ، ١٥٧ب ؛ جـ٥ ، ورقة ٨أ ، ١٠ب ؛ السخاوى ، الضوء اللامع جـ٣، ص٦٦ ؛ جـ٦ ، ص١٨٤ ، ٢٢٦ .

(٢٠) السخاوى، الضوء اللامع ، جـ٢، ص٣١٧ ، ٣٢٠ ؛ جـ٣، ص٢٦ ؛ ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والبربر ، القاهرة ١٨٦٧ — ١٨٦٨ ، جـ٥ ، ص٣٨١ .

(٢١) ابن تغرى بردى حوادث الدهور ، ص٧٢٠ ؛ المنهل الصافى ، ورقة ٤٢١ب؛ النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٥٧٩ ، ٥٩١ ؛ ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، حيدر آباد ١٩٢٩ — ١٩٣٢ ، جـ١ ، ص٣٩٥ ؛ جـ٢ ، ص ١٧٤ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٨ ، ٦٠ ، جـ٦ ، ص١٩٥ .

(٢٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٣٧٧ .

(٢٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٥٥ .

(٢٤) تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص ١٨٠ ، ٤٤٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٥٧٩ ، ٥٩١ ، ٦٠٠ ، ٦١٥ ، ٧٦٧ ؛ ٧٧٥ ، ٧٩٣ ، حوادث الدهور ، ص ٧١٩ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٨ ، المنهل الصافى ، جـ ١ ، ورقة ١٥٦ب ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٣٩٥ ، ٤٢٨ ، ٤٨٠ ، جـ ٢ ص١٧٤ ، جـ٣ ، ص٣٧٠ ، جـ٤ ، ٤٨٩ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٨ ، ٦٠ ، جـ٦ ، ص١٩٥ .

(٢٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٧ ، ص٤ ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ٣٠٨ ، ٥٧٣ ، المنهل الصافى ، ورقة ٢٦٤ب ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ٢ ، ص١٨٥ .

(٢٦) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٧ ، ٣٠ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ٣٤٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبقة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٣١٩ ، حوادث الدهور ، ص٦٤٥ ، السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص١٩١ .

ومع هذا فمن الملاحظ أن لفظ مخدوم كان يعتبر بمثابة مرادف للفظ أستاذ ، انظر : تاريخ ابن الفرات، جـ٩ ، ص٢٣ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ١ ، ورقة ١٥٨ب .

(٢٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٥ ، ص ٤٥٢ ، ٢٥٤ ، ٤٥٥ ، جـ٦ ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٣٨٤ ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص٥٦ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ابن قاضى شهبة ، الأعلام بتاريخ الإسلام ، مخطوط بأكسفورد تحت رقم ١٤٣ ، ورقة ٣٩ب .

(٢٨) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص١٧٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج٢ ، ص٢٤٧ ، ٢٩٤ .

(٢٩) Zetterstéen, Goschichte, pp. 41,51 ، ابن كثير ، البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ١٩٣٢ — ١٩٣٩ ، ج١٤ ، ص٢٨١ ، المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٨٢٠ ، ٨٣٢ ، ج٢ ، ص ٥٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٨ ، ص١٠٣ ، طبعة كاليفورنيا ، ج٦ ، ص٢٣٦ ، ٣٢٣ ، ج٧ ، ص٨٤ ، ٤١١ ، حوادث الدهور ، ص ١٣٢ .

(٣٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٧ ، ص٣٦٥ ، المنهل الصافى ، ج٢ ، ورقة ٣٤ب .

(٣١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٧ ، ص٣١٨ — ٢١٩ .

(٣٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٧ ، ص٣٦٦ .

(٣٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٨ ، ص١٩ .

(٣٤) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٨٦٦ .

(٣٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج١ ، ص٢٢٠ .

(٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٨ ، ص٢٢٩ .

(٣٧) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم ٢٣٣٢٥ ، ج٩ ، ورقة ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

(٣٨) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج١ ، ص١٨٩ .

(٣٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج٦ ، ص٥٦٠ .

(٤٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج١ ، ص٣١١ .

(٤١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص٢٣٩ ، ٢٤٠ ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج٧ ، ص٤٦٩ .

(٤٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج٧ ، ص٧١٩ .

(٤٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج١ ، ص٢٨٠ .

(٤٤) العينى ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط باستنبول تحت رقم ٢٣٩١ — ٢٣٩٤ ، مجلد ٧٠ ، ورقة ٧٢٨ ، ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص٦ .

(٤٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج٦ ، ص٤٣٦ .

(٤٦) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٢ ، ورقة ٢١٦أ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٣٢٢ ، ج١٠ ، ص٢٧٢ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج١ ، ص١٦٨ .

(٤٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، ج٣ ، ص ٢٤٠ ، ٢٨٦ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٢ ، ورقة ١٧٣ب ، ج٣ ، ورقة ٢٧٧ ،

جـ ٤ ، ورقة ٢٩٦ ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ ٦ ، ص ٤٧٩ ، جـ ٧ ، ص ٩٧ ، ٢٦٠ ، ٦٨٨ .

(٤٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٢٨ .

(٤٩) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص١٥٠ .

(٥٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٦٨٨ ، المنهل الصافى جـ ١ ، ورقة ١٦٥ ب ، جـ ٢ ، ورقة ١٧٣ ب ، السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٣ ، ص ٢٨١ .

(٥١) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٤ ، ص٩ .

(٥٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٤٦٩ .

(٥٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ٢ ، ص٢١٥ .

(٥٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٤٦٩ ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ١٧٤ أ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٣٠ .

(٥٥) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ١ ، ورقة ١٧٤ أ ، جـ٣ ، ورقة ١٧٠ أ ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ١ ، ص٤٦٩ .

(٥٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٦٦ .

(٥٧) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٦٩٥ .

(٥٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٦٩٥ .

(٥٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٤٣ ، ٧٤٩ .

(٦٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا، جـ٦ ، ص٥٢٥ ، ٥٣٩ ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ٤٢ب ، ٥٥ أ .

(٦١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ٢٢٦ أ .

(٦٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٣ ، ص٩٧ .

(٦٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٦٩ .

(٦٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٤٩٨ .

(٦٥) انظر : Ayalon, L'Esclavage, p. 33.

(٦٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٣١٥ ، السخاوى، الضوء اللامع ، جـ١ ، ص١٥٣ .

(٦٧) تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص١١٥ ، ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، باريس ١٨٩٤ ، ص١٢٢ ، القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، القاهرة ١٩١٤ — ١٩٢٨ ، حـ١١ ، ص١٧٣ .

(٦٨) Peliak; Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanen, London 1939, p. 3, nete (1).

(٦٩) عبر المقريزى تعبيراً صريحاً عن انتشار هذا الداء بين المماليك بمصر فقال بأنه : « فشى فى أهل الدولة محبة الذكران » حتى عمدت النســاء الى التشبه بالذكور فى ملبسهم ليستملن قلوب الرجال ، انظر : الخطط ، جـ٢ ، ص١٠٤ ، أحمد عبد الرازق ، المرأة فى مصر المملوكية ، ص١٠٢ .

(٧٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ ٦ ، ص ٥٦٩ ، حوادث الدهور ، ص٣٥٠ ، المنهل الصافى ، جـ١ ، ورقة١٩٤ب ، ١٩٥أ ، جـ٢ ، ورقة١٩١أ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٧١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ٢ ، ص ١٦ .

(٧١) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٢٦ .

(٧٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، جـ٣ ، ص ٣٠١ ، جـ ٤ ، ص ٩٨ .

(٧٣) عن الطواشية : انظر :

Ayalon, Studies on the structure of the mamlûk army, BSOAS, XV/3 (1953), pp. 467 — 467; Salâh El-behiry, Les Institutions de l'Egypte au temps des Ayyûbîdes, Lille 1972, pp 46—66.

(٧٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، جـ٥ ، ص ٦ ،
Ayalon, L'Esclavage, p. 34; Ahmpd Abd ar-Raziq, La Femme, p. 172.

(٧٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٤٨ ، ابن حجر ، الدرر الـكامنة ، جـ٣ ، ص٢٦٣ .

(٧٦) ابن حجر ، الدرر الـكامنة ، جـ٣ ، ص٣٦٣ .

(٧٧) مفضل بن أبى الفضائل ، كتاب النهج الســديد والدر الفريد فيما بعــد تاريخ ابن العميد باريس ١٩١١ ، جـ١٤ ، ص٥٩٧ .

(٧٨) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ٤ ، ورقة ٣ أ .

(٧٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعــة كاليفورنيا ، جـ٥ ، ص ٤١٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ٩ ، ص٥٢ .

(٨٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٣ ، ص١٣ .

(٨١) المقريزى ، الســلوك ، جـ١ ، ص ٣٨٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعــة القاهرة ، جـ٧ ، ص ١٢ .

(٨٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٣٩٣ .

(٨٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٧ ، ص١٠٣ ، ٢٨٦ .

(٨٤) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ج١ ، ورقة ٣٤٦ أ .

(٨٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٧ ، ص١٠٣ .

(٨٦) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٧ ، ص ٢٨٦ .

(٨٧) اسم لوظيفة يتألف من ثلاث كلمات : أمير العربية ، وجان الفارسية والتركية ومعناها الروح ، ودار الفارسية ومعناها ممسك ، والمعنى الكلى الأمير الممسك للروح ، انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٠ ، ٥٩ ، ج٥ ، ص٤٦١ ، المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، ج ١ ، ص١٩٥ — ١٩٨ .

(٨٨) المقريزى ، السلوك ، ج٢ ، ص٧٦ .

(٨٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٨ ، ص٣٧ .

(٩٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٨ ، ص ٦٧ .

(٩١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج٧ ، ص٦٣٦ .

(٩٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٢ ، ورقة ٥٧ أ .

(٩٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٣ ، ورقة ٧٤ أ .

(٩٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ٢٠١ .

(٩٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص ١٦٤ .

(٩٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٧ ، ص٢٩٠ .

(٩٧) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ٥١٢ .

(٩٨) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج٢ ، ص ٢٧٧ .

(٩٩) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ١٧٠ ، وانظر أيضاً الحواشى التالية .

(١٠٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج٩ ، ص٣٠٠ ، المنهل الصافى ، ج٢ ، ورقة ٨٥ ب .

(١٠١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٣ ، ورقة ١٩١ب .

(١٠٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج٦ ، ص ٥٢٦ .

(١٠٣) العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٣٨٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص٣٧٧ ، ابن شاكر ، عيون التواريخ ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٣٧٦ تاريخ ،

حـ٢٠ ، ورقة ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، حـ٦ ، ص٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(١٠٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٨ ، ص١٠٠ ، المنهل الصافى ، ورقة ٥٥ ب .

(١٠٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، حـ ٧ ؛ ١٢ ، ١٣ ، حـ ٨ ، ص٦٨ ، المنهل الصافى ، حـ١ ، ورقة ٣٣٦ أ .

(١٠٦) انظر ما جاء بصدد هذه الفئة من المماليك فى :

Ayalon, The Mamluk army, BSOAS, XV/2 (1953), pp. 220–222.

(١٠٧) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص٤٤٣ .